مُناقشات

الشعر العربي ودعاة التجديد

بقلم : اسماعيل عدره

يجتاز الشعر العربي، منذ سنين ، مرحلة ، ستعتبر حاسمة في تاريخه ، كفن صور الى اقصى حد الحاسة الفنية والتجارب النفسية والفكرية العامة ، التي يعانيها الشعب العربي منذ اجيال بعيدة . ولقد عملت مباضع النقد المختلفة ، النزيهة والمغرضة ، عملها العنيف في جسد هذا الشعر ، وغاصت فيه الى حدود بعيدة الغور ، عميقة ، استنبطت منه الدر فأرته لمن يبصر فابصر نفر وتعامى آخرون ، واستنزفت دمه وارته للمتعامين مصلا هزيلا خاويا ، فمج ونبذ من هذا النفر المتعامي ، حتى وصل المرحلة الحاضرة ، فاذا به يستحيل لدى الاستاذ اسماعيل مصطفى الصيفي، كتلة سديمية ، متحجرة جامدة (١)!

لـم ؟

«لان طبيعة الشعر العربي ـ الحديث ـ انفجارية حركية متطورة تأبى هذه الزخرفة الرتيبة »

ولـم ؟

لان الشعر العربي « ذلك الشكل الثباتي الجامد » لا يحقق « هـذا الشكل الحركي المتطور » !

هكذا يقرر الاستاذ صيفي .

مسكين شعرنا !.. لقد عيبت عليه انطلاقيته وغنائيته ، وما اكثر هؤلاء المعيبين ، وعري من صوره كشجرة في ريق الربيع ، وتمادى الناقدون الحاقدون فوسموه بالخطابية ، وباللفظية ذات الايقاع المترنم المستحوذة على المضمون فجاء لونه باهتا « جامدا » !

ولنتساءل : كيف نجمع ، وكيف ينبغي لنا ان نجمع بين « غنائية » الشعر العربي الموسوم بها أبدا ، والتي حطت من شانه ، وغضت من قيمه الفنية واغراضه الانسانية ، وبين تجريده من هذه الغنائية ـ الايقاعية ، واستحالته لدى الاستاذ اسماعيل الصيفي ، الى شكل سديمي جامد متحجر ؟!

لنترك التعميم ..

يأخذ الاستاذ الصيفي على الشعر العربي تحجره بتساؤله : « هل كتب لموسيقى الشعر العربي ان تتحجر فلا يسمح بتطويرها » ؟

وأجيب : اي تطوير يقصد اليه الاستاذ الصيفي ؟

التطوير في مفهومه الفكري والعملي ، نزوع الى الاكمل في مجالي الحياة العامة ، يتوقد فيه عقل يبدع ، وتنبثق منه عاطفة مشبوبة ترسم للحياة جدة ومتعة وجمالا ، وتبدد من المشاعر الحاسة ضبابية الفكر العاتم ، فتأتي القيم بفجرها الجديد ومثلها النيرة .

هذا هو التطوير في خطوطه العامة ، فهل خطا الشعر العربي«الحديث» هذه الخطوة المتطورة ، وقصر الشعر العربي هذا المجال فجمد ؟.

يتهم دعاة الشعر العربي « الحديث » ، الشعر العربي اتهامات ليس في مقدور المرء ان يحصيها ، لانها لاتقف عند الجانب« المتحجر » الذي صبه الاستاذ اسماعيل الصيفي على شكل احكام مبرمة، بل قد تشتمل على كل انطفاءة في شعلة الفكر العربي ، او عجز في السمو بالفن العربي عامة . وهم ازاء ذلك ، أطباء حكماء ، وهذا الشعر سقيم عليل ، ينبغي ان يعالج بروح الابداع والتجديد ، ولكن لا ابداع ولا تجديد الا بتبديل «هيكله» وتعريته من حلته التي ولدت معه كحاسة أزلية ، واذ ذاك يشفى المريض ويعود للحياة غيره في الامس ، وحتى لو رآه ذووه فاستنكروه واستنكروا هذا الثوب « الجديد » ، فهم حينئذ اهل لا يهدفون « الى تحرير لحظة الابداع من القالب المحدود سلفا .. » !

ان هؤلاء « المجددين » يذكرون الانسان العربي بالدكتور عبد العظيم انيس والدكتور انيس فريحه والاستاذ بدر نشأت وغيرهم ممن قالوا او فكروا بانه ينبغي للغة العربية ان يصيبها عامل التجديد، بتقسيمها الى عدة لغات حديثة ، على غرار اللاتينية ، فيكون من ثم ، اللغة المصرية واللغة العراقية واللبنانية .. تماما كاللغات التي قامت على انقاض اللاتينية !

ويطوف هؤلاء الدعاة الشعراء ، في حلقة الاوزان ..

فهل هذه الاوزان والتفعيلات ، وهذا القالب الفنائي ، وبخاصة الاوزان ، عامل تجمد في انطلاقة الفكر العربي الشاعر ؟

لقد ولدت هذه التفاعيل حية قوية ، متناسقة ، مستوسقة ، متطورة ، لانها نتاج البديهية الاصيلة وعفوية الطبع المطبوع، فلما يتاح لمثلها ان كان ثمة مثلها ، ،ن تخلق الشعر !.. ان هذه التفعيلات قانون حي من قوانين الاحساس النامي ، المتجدد الصامد ، غير قابل في حال ، اي تجديد يغاير اصالته وطبيعته . انه فن متكامل ، سمق بالايقاعات الهازة ، والترنيمة الشيقة ، فنوه بجماليتها عديد من قادة الفكر : عربا ومستشرقين ، واشادوا بالسليقة العربية التي كان من نتاجها ، هاتيك الدفقات الثرة من تاريخنا الادبي التي نجهد لانتاج مثيلها وترصيع صفحاتنا المعاصرة بالوان زاهية من اشراقها .. واعتقد ان الاستاذ اسماعيل الصيفي يدرك تماما ، ان شعرنا العربي ، اذ انحرف عن طبعه، ضعفت روحه ، ووهنت صوره ، وسار في انحداره حتى ادرك « عصر الانحطاط » مودعا صفي الدين الحلي ، ومستقبلا يوم ذاك والى ما قبل حين ، « شعراء » استغفر الشعر والشعراء ان يمتوا اليهم بنسب!

وعزونا انحدار الشعر العربي بعدان صوح العهد العباسي الزاهر ، الى الحالة السياسية والاجتماعية ، التي تردى فيها الوطن العربي ، ففصمت الآصرة التليدة التي تشد العربي في مجاله الفني ، الى ابي الطيب وابي تمام وابي العلاء وجرير ولبيد وطرفة ، وحتى اذا انقضت تلك الحالة ، وانقضى معها عهد القهقرى الفكرية ، وعاد العقل العربي الى توهجه ، جلا الاجنبي عن اجزاء من الوطن ، مخلفا وراءه اثرين سيئين في جبين الفكر العربي المعاصر : اولهما ، هذه النظرة المترعة بالاستخفاف التي ينظرها عديد من شبابنا المتأدب الى كل تاريخنا ، وبخاصة الى الشعر العربي الذي يسمونه « « بالقديم » » ، وثانيهما هذا النمط الغريب الذي تحيف الشعر العربي ، واستنه ذلك النفر « المجدد » ، ودعاه « تجديدا » ، وما هذا « التجديد » الا شكل من اشكال الشعر الاجنبي الحديث خاصة ، ولاسيما شعر : غارسيا لوركا وماياكوفسكي ونايرودا وناظم حكمت ،وليس بين هذا الشعر وأي شعر اخر ، بله العربي ، اية صلة ، سوى هاتيك التفعيلات التي ارغم الشاعر العربي « الحديث المجدد » على استخدامها في اوزانه « المبتكرة » لانه ليس بقادر على ان يبدع تفاعيل جديدة ،

(١) العدد الخامس ١٩٥٩ من مجلة الاداب

وليس عجزا منه ، هذا ، اذ ان هذه التفعيلات بصورها الحية المحافظة على الجده والمتانة ، لتمتنع باباء على كل نشاز او رج في سلمها الموسيقي السليم !

وليدلل الاستاذ الصيفي على خلو شعرنا من ايقاعاته الهازة ، اورد ثلاثة ابيات لابي الطيب ـ نعم لابي الطيب ! ـ هي

متخضب بدم الفوارس لابس ... في غيله من لبدتيه غيلا
ويدق بالصدر الحجار كانه ... يبغي الى ما في الحضيض سبيلا
والعار مضاض وليس بخائف ... من حتفه من خاف مما قيلا

وبحكم مبرم يعري الاستاذ الصيفي هذه الابيات من كل ايقاع شعري مرن ... ان فيها « الراء والسين » ، هذين الحرفين اللذين استعملهما ابو الطيب اعتباطا ، فاضطرب النموج الموسيقي ، وذهبت ، من ثم جمالية الاداء !!

وانا لا اعتب الاستاذ الصيفي ، هنا ، لانه في ما كتب او نظم ، شاعر متعصب « للحديث » على « القديم » ، ولولا خوفي على أمير الشعر العربي المعاصر ان تصيبه يراعة الاستاذ الصيفي كما اصابت امير الشعر العباسي ، لترنمت بقوله :

ان التعصب مانع ... ان تبصر العين الصوابا !

والا ، اي نشاز ايقاعي في ابيات ابي الطيب ؟

لقد تلونا الابيات في احدى ندواتنا الادبية ، وهززنا مع تفعيلاتها وانسيابها الموسيقي فلم نجد فيها ما ينبغي ان « ينزع من الشطر الاول ليعطي للثاني » .

فأي عي في لسان هذا الشعر المجنح ابدا ، واي فقر في غناه؟!

واية ايقاعية مرنة في الشعر « الحديث » ؟

اخي :

ما زال في الدرب
يا اصدقائي رجال يومهم ضحك
لو يقبل الملك ..
لم يسكتوا .. ؟

واذا جوز الشعراء العرب ان يصيب شعرهم : الترفيل او التشعيث، والتجزئة والانهاك ، والشطر او الصرع ، فهل هذا تجديد كما يرى الاستاذ الصيف ؟.. ان هذه الانماط صور حية من القالب الشعري العربي استخدمها امرؤ القيس كما استخدمها سليمان العيسى او يوسف الخطيب ، وهي في انسيابها الايقاعي على طرفي نقيض وهذا الشعر « الجديد » . ومغفرة للسياب ونازك الملائكة ، اذ كل منهما اصر انصاره على انه المبدع الاول لهذا النمط الشعري الجديد ، على حين تطاول عبد الوهاب البياتي ليستلم شرف هذا الابداع الرائع . واستغفر الشعر العربي في هذا الوليد الاجنبي الوجه والثقافة والحلة ..

كم قبس البياتي من ناظم حكمت وغيره ؟

وكم ارتاد مناهل لوركا ونيرودا وغيرهما ؟

وكم نسي هؤلاء وامثالهم ارادة الخلق العربي في المجال الفكري الوهاج ليحتاجوا من الشعر الاجنبي موضوعا واسلوبا ، ونمطا وكيفية ، وليفنوا مع عبد الوهاب البياتي :

من قلة الخيل
شدوا على الكلاب
سروجهم ، ونبحوا السحاب
اصبت بالقرف

منكم ومن اشعاركم
يا خنافس الخزف ..!

أهذه هي التفعيلات الجديدة ، او هذه هي الانماط المبدعة الخلاقة ؟

لقد نظم هوغو « كفارته » على بحرين : احدهما طويل والاخر قصير ، وتمنى هوغو ان ينجو من هذا المنحى في الملحمة الخالدة «الكفارة» ولكن صور الملحمة الثرة وغناها الفكري ومداها الرحب ، وقدسية الامبراطور الغازي في نفس الشاعر ، حدت به ان يسلك كل هاتيك الملحمة الرائعة في بحرين فحسب . والشعر الاجنبي نفسه ، الذي أغنى الوجدان الانساني بصوره الرائعة ، هذا الشعر نفسه لم يعرف هذا اللون من الشكل الحديث!

ان انسياب الشاعر مع دفقات الفكر ، حين ينساب بتوهج واصالة الهام ووحي وابداع ، تتطاحن دونه هذه الاوزان المبتورة ، وتحتشد في مخيلته المجنحة ، افكار ومعان وصور والفاظ ، يستوعبها القلب الاصيل، ويستوسقها كينبوع رقراق ، اختط له طريقا لامعا ، في ارض معشوشبة، يظلها وارفات الاشجار ، وتغني له نياسم ندية ، منعشة ، وتصونه اغنية خالدة ، يغردها له طيور عبقرية ، جناح لها يرفرف لابن كلثوم وابن حلزة وامريء القيس وابي الطيب .. واخر يصون هذا التراث الفني من عاديات التجديد الدخيل .

انني لامتنع هنا ، عن المقارنة بين النماذج « القديمة » كما يسمونها، والنماذج « الحديثة » ، او بين شعراء هذين الاتجاهين ، اذ لا مجال ابدا للمقارنة . فما يولد اصيلا يلازمه التجدد في الصقل ورقة الطبع ومتانة السبك ، والدخيل راجع ، لا محالة من حيث اتى .

اسماعيل عدره

أمتنـا وحريـة الفكر

بقلم احمد صدقي الدجاني

في وثبتنا الرائعة لتخطي جميع الحواجز التي تفصلنا عن منابع قوتنا، وفي جهادنا المرير ضد قوى الشر المجتمعة للقضاء علينا بالابقاء على تبعيتنا ، وفي عملنا الدائب لاقامة مجتمع افضل يحتل مركزه اللائق به بين المجتمعات الانسانية ويتسنم قمة المجد فيها .. لا بد لنا من ارساء اسس فكرية سليمة تقوم عليها حضارتنا ويتغذى من لبانها جيلنا الصاعد. واهم ما يجب ان تتصف به هذه الاسس الذاتية والاصالة بمعنى ان تكون منبثقة من حقيقة امتنا وخالصة من كل شائبة . والمسئولية في تهيئة هذه الاسس انما تقع على كل الواعين من ابناء امتنا الذين تميزوا بالفكر الحر والتقدمية في التفكير الى جانب تشربهم بمحبة امتهم والفناء في الاخلاص لها والعمل من اجلها .

وليس بخاف ما للتاريخ من اهمية قصوى في انبعاث الامم فمن بين سطوره يتعرف ابناء الامة الى روح امتهم ويستجلون اصالتها وعظمتها كما يستعينون به لرسم طريق المستقبل البسام بعد ان عرفوا عبرة الماضي التليد . وعلى هذا فان من اهم ما يجب علينا عمله ان يدرس تاريخنا دراسة عميقة ويبرز في ثوبه الحقيقي بعد ان تمزق عنه الحجب الكثيفة التي اسدلها اعداء امتنا عليه ، وبعد ان تحطم الصورة المشوهة المسوخة التي صنعها اولئك الاعداء ونحن في غفلة عنهم فترة من الزمن . اننا نريد ان يعرض تاريخنا الحقيقي دونما تزويق وتزييف ودونما تشويه

ومع ذلك نحن واثقون من النتيجة فقد ساهمت امتنا العظيمة بقسط وافر في الحضارة الانسانية طوال حقبات التاريخ المتتابعة .

ان اهمية هذا العمل عظيمة وهي في نظر من اطلع على حقيقة تاريخنا وشاهد الصورة المشوهة ـ عظيمة جدا لانه لمس الفارق الكبير المفزع بينهما .

وقصة صنع هذه الصورة المشوهة الممسوخة تقودنا الى قصة الغزو الاستعماري الذي قامت به اوروبا لشرقنا ، حيث عمل السلاحان الفكري والعسكري جنبا الى جنب للقضاء على روح المقاومة العظيمة التي ابداها شرقنا ضد ذلك الغزو . وحيث كان العالم الاوربي يأتمر بامر القائد العسكري وكلاهما ينفذ اوامر اساطين الاستعمار .

فقد شعر هؤلاء بضرورة تبرير الجرائم البشعة التي اقترفوها في غزوهم وذلك ليخدعوا ابناء امتهم من جهة وابناء الامم المغلوبة من جهة اخرى وربما ليموهوا على انفسهم ايضا بحيث يصبحون قديسين ورسلا امام انفسهم على الاقل . وهكذا بدأت تظهر للوجود ـ على يد العلماء الغربيين ـ فكرة همجية الشرق وحضارة الغرب ، ثم ما يترتب على الغرب من رسالة ، ازاء هذا الشرق المتاخر ، والعجيب ان اغلب العلماء الاوربيين ينساقون وراء هذه الاكذوبة الضخمة عندما يفسرون الحوادث التاريخية ويعللونها بل عندما يعرضونها . وليس هذا ناشئا بالطبع عن جهل او خطأ في الاجتهاد وانما هو في الغالب تزوير مقصود يرمي الى تلك الاهداف الاستعمارية .

يعالج المؤرخون الاوربيون ـ على سبيل المثال ـ الحروب الفارسية اليونانية التي حدثت قبل حوالي الفين وخمسمائة سنة ، والحروب القرطاجية اليونانية التي عاصرتها ، فنجدهم يتحدثون عن النضال بين همجية الشرق وحضارة الغرب. فهذا طومسن اكبر مؤرخي الالمان في القرن التاسع عشر يذكر ان القصد من هذه الحروب كان « محو الحرية والحضارة بضربة واحدة من وجه الارض » . ولا يعدو ما قاله غلوتس المؤرخ الفرنسي والاستاذ ويلكن ذلك . وهكذا ارجع هؤلاء وجود هذا التفريق بين الشرق والغرب الى ما قبل الاف السنين . لا اظن ان هؤلاء المؤرخين الكبار يجهلون ان امتي الفرس والفينيقيين لا تقلان حضارة عن الامة اليونانية ، بل ان تأثر اليونانيين بالامم الشرقية المجاورة التي كانوا على اتصال بها واقتباسهم عنها الكثير من عناصر الحضارة امر ليس خافيا على هؤلاء المؤرخين فهو قضية تاريخية مسلم بها يكفي شاهدا عليها ما رآه اليونانيون لما احتكوا بمصر حيث وجدوا امة عريقة في الحضارة متقدمة عليهم بالاف السنين حتى ذكر الحكيم صولون قول احد الكهنة المصريين له « انتم اليونانيين لستم سوى اطفال ثرثارين مغرورين لا تعرفون شيئا عن الماضي .» (١) كذلك شاهد هذه النظرة عند المدرسة الاستعمارية الانكليزية « التي كانت تعلق اهمية كبيرة على رسالتها في العالم وعلى الدور الذي يقوم به الانكليزي تجاه الشعوب الملونة وقد تأكدت هذه الفطرة السياسية بصورة واضحة جدا ليس عند الادباء ككبلنج فحسب بل عند القادة والساسة من ذوي الثقافة المتوسطة »(٢) ويلاحظ الدارس لادب كبلنج وخاصة لكتابه « كيم » نظرته الى تفوق الانجليزي على الشرقي الهندي .

اما تردد هذه الاكذوبة على لسان رجال السياسة الغربيين فقد اصم اذاننا فهم مافتئوا يرددون في خطبهم عبارة « الدفاع عن الحرية والحضارة» كلما شنوا الحرب على الامم الشرقية عند مطالبتها بالاستقلال ومحاولتها التخلص من الاستعمار ، بل انهم يقرنون هذه العبارة بالاساطيل الحربية والجيوش الجرارة وليست حادثتا غزو لبنان والاردن في العام الماضي عنا ببعيدتين .

باسم هذه الاكذوبة الضخمة استعمرت انكلترا او فرنسا بلادنا وجزأتها وفرضت علينا عصبة الامم انتداب هاتين الدولتين لتاخذ بايدينا في طريق التقدم والحضارة فامتصت خيراتنا .. وضاعت فلسطين و ..

لذلك فان محو هذه الاكذوبة ـ من اذهان ابناء امتنا على الاقل ـ امر بالغ الاهمية ويتحمل عبء ذلك كل واحد من اولئك الشباب المخلصين الواعين .

ولذلك ايضا فاننا نود ان نناقش ماكتبه الاستاذ محي الدين محمد في بحثه « مشكلة حرية الفكر » الذي نشرته الاداب في عددها الاخير .

وقبل ان نفعل ذلك نود ان نسجل ملاحظة حول موقف شباب امتنا المثقف من الحضارة الاوروبية . اذ يمكننا ان ندرج شبابنا الذين اطلعوا على الحضارة الغربية في فئتين : فئة فهم افرادها روح الحضارة الغربية واعجبوا بجوانبها الرائعة وراوا اقتباس روائعها دون ان يتجنى ذلك على روح امتنا واصالتها كما امنوا بان امتنا قد اعطت الغرب الكثير لما احتك بها في اسبانيا وفلسطين وبلاد الشام زمن الحروب الصليبية . وان الواجب ان نسترد منه الكثير لنلحق بالركب الذي فاتنا ونحن في سنة من النوم ونستعيد مكانتنا الاولى ، وعليه فان مانحتاج اليه هو لباب الحضارة لاقشورها . وفئة ثانية غشت عيونها روعة الحضارة الغربية وسلبت لبها حتى باتت ابصارها معلقة بها ولا تنظر الا من خلالها .واصمت أذانها اصوات الاله فانساقت بكليتها اليها الى حد تنكرها لكل ماليس غربيا ولو كان متصلا بالشرق الذي ترعرعت فيه .

وهذه الفئة تردد جميع اقوال الغربيين دونما تمحيص ودون أن تلاحظ عداوتهم لنا . ومثلها الاعلى ان تصبح امتنا صورة عن الامم الغربية .وهذا لن يكون الا عندما تفقد ذاتيتها وعندها لن تكون الا صورة ممسوخة مشوهة .

اما بصدد البحث الذي كتبه الاستاذ محي الدين محمد فاننا نريد ان نتناوله من جانبين . فنبرز اولا الروح التي كتب بها الاستاذ بحثه ونبين النتائج التي اوصلته هذه الروح اليها . ثم نناقش ثانيا ما ورد في بحثه من اقوال تخالف الواقع .

ان الكاتب متشبع كليا بالحضارة الغربية ومعجب بها اعجابا عظيما الى درجة انه ينقاد انقيادا مطلقا للعلماء الغربيين ويتبنى اراء المتعصبين منهم حينما يكتبون عن الشرق . فكثيرا ماحدثت المقارنة بين الشرق والغرب في البحث ... الشرق « الذي عبرت الفان من السنين فوق جسده المسجى بدون ان تستطيع ايقاظ ذهنه » . الشرق العربي « الذي لا يزال مخدرا منذ الفين من السنوات » الشرق « الذي تعج في ارضه العناكب المشعرة التي تخيفنا باسم المحافظة على ترك الاجداد والاباء ». الشرق الذي يؤمن بالخرافة ويتصف بالجهل والتعصب والبربرية .

والغرب « المتطور اللاهب » الذي شيد « الحضارة الغربية العظيمة » « الحافل باولئك الابطال النادرين الذي قاوموا سلطة الصليب البشعة . » الخ ....

هذه هي الصورة التي يحملها الكاتب للشرق والغرب . وهي تبدو بوضوح مع انها ترد في معرض الحديث عن حرية الفكر . واظن انه واضح تماما الصلة بين هذه الصورة وبين تلك الصورة المشوهة التي

(١) الدكتور كامل عياد في تاريخ اليونان

(٢) بيرونوفهن في تاريخ القرن العشرين

صنعها اولئك العلماء الغربيون .بل ان تاثر الاستاذ بهم يتجاوز حـــد تبني الافكار الى استعمال نفس الالفاظ « الكنبُ الصفراء .. الخرافة .. البربـريـة .. الخ .. »

وبعد .. احق ان امتنا مخدرة منذ الفين من السنين ولم تستيقظ بعد ولم تفلح هذه السنوات الطوال في ايقاظ ذهنها ؟ ان كان هذا حقا ـ وهو ليس كذلك بل هو مجاف للحقيقة البينة ـ فان الامل مفقـود فـي ان تستيقظ امتنا حتى ولو قتل الالاف الذين عناهم الاستاذ .

اصحيح ان حضارتنا الشرقية ـ في نألقها ـ هزيلة اذا حدث التقابل بينها وبين « الحضارة الغربية العظيمة »؟

احق ان تاريخ امتنا الحديث خال من الشهداء الذين ماتوا فـــي سبيل الحرية ؟

واسئلة كثيرة تلح على قارىء البحث وكلها تتعلق بالحقيقة التي كانت عليها امتنا والصورة المسوخة التي جاءت في البحث . والواقع ان الحقيقة اقوى من ان تنطمس . ونورها انفذ من ان تحجبه الصورة المشوهة .

واظن انه لادا عي للتفصيل في الحديث عن الحضارة الشماء التـــي شيدتها امتنا واقامت صرحها ويكفي لكي نصحح في ذهن الاستاذ صورة « الحضارة الشرقية الهزيلة » ان نطلب منه الاطلاع على تاريخها مـــن مظانه حتى من خلال ما كتبه المؤرخون الغربيون فكثير منهم يسلم بحقيقة هذه الحضاره وكثير منهم كتب عنها كبارنولد وبروكلمان وجوزي وكريمر ومتز وغيرهم . ويكون جميلا أيضا لو اطلع على تلك الكتب الصفراء التي يخشاها وواجب البحث العلمي يفرض عليه ذلك . انه اذا فعل فلـــن يكرر القول بان امته لم تفعل الا « توصيل ارسطو كاملا الى الذهـــن الغربي .. وعد ذلك انتصارا كونيا . لن يقول هذا لانه سيعرف ان امته ساهمت مساهمةفعالة في تقدمالعلوم الرياضية علىيد الخوارزميوصحبه وفي تقدم العلوم الطبيعية على يد ابن حيانوالبيروني وابن الهيثـــم وغيرهم وفي تقدم الفلسفة العقلية على يد الفزالي وابن رشد والكندي واخوان الصفا وغيرهم والمجال ضيق للتحدث عن دور امتنا العظيـــم في ذلك التقدم كله .

ويفدم الاستاذ بحثه بكلمة يذكر فيها ان حرية الفكر مطموسة فـــي شرقنا العربي وانه بعيدها للذكير « لكي يفجر التذكير عملية نجهلهـا تماما وهي التطور » . وهكذا ببساطة يحكم الاستاذ على شرقنا العربـي بانه لم يعرف التطور ابدا وانه لم يتمتع قط بحريه الفكر . ونقرأ البحث لنتبين مايقصده فنجده يكرر اننا منذ الفين من السنين لم نتطور ومرة يقول « منذ الف سنة ويزيد » وينضح انه يقصد ان شرقنا العربي منذ ظهور السيد المسيح حتى يومنا هذا وهو جامد يأبى الانقياد لعامل الزمن فيتحـرك .

أهذه حقيقة ؟ لننظر معا عبر هذه السنوات نظرة مجردة موضوعيـة لا يؤثر عليها هوى او تعصب فنجد ان هذه السنوات حافلة بالاحـداث الجسام والقفزات الهائلة في مضمار التقدم الانساني .

ان ظهور السيد المسيح نفسه لاكبر مثل على ذلك . انسان حـــر التفكير يدعو الى اسمح المبادىء ويتعب في سبيل ذلك ويجهد غير عابىء بكل ماينالاه من اذى اولئك المتسلطين . وهكذا انبعثت من شرقنا رسالة سامية كان لها اكبر الاثر في اوروبا نفسها . وينعي الاستاذ على المسيحية « انها كانت تنادي بحرية الفكر في عهد اباطرة الرومان ثم كـــان اول اعمالها حين تسلمت السلطة ان شجبت حرية التفكير وحرية العقيدة». والواقع ان مبادىء المسيحية بقيت تلك المبادىء السامية والذي حدث ان بعض المستغلين لها اساءوا استعمالها . ونود من الاستاذ ان يلاحظ ان هذا الانحراف حدث في الغرب وليس في الشرق . اي اننا قدمنا المباديء الرائعة التي سرعان ما شوهها الغرب بعد ان اخذها .

كذلك الامر بالنسبة للرسالة التي بشر بها النبي العربي من قلـــب الجزيرة العربية فهزت العالم اجمع . انها تطور كلي . ونسف لمفاهيـم كانت سائدة تنهش عقول الناس فيفعلون من الاثام مالا يليق بالانسان . انها قضاء على التقليد الاعمى للاباء والاجداد .. وشحذ للفكر الانسانـي ليصل عن طريق التفكير الى حقيقة الوجود . جاءت بمبادىء تكفـــل حرية الفكر وعلى مدى الف من السنين رأينا تطبيق الكثير من هـــذه المبادىء . ويكفي ان نلفت نظر الاستاذ الى ان حرية الاعتقاد سادتشرقنا طوال تلك الفترة ولم يحدث ان نظمت المذابح للقضاء على المذاهبالمخالفة كما جرى في اوربا . لقد قررت تلك الرسالة ان « لااكراه في الدين » فعاش الجميع جنبا الى جنب متحابين اخوة حتى عقدت السنة الجنـود الصليبيين دهشة لمـا رأوا التسامح الرائع بين المسلمين والمسيحيـين ووقوفهم صفا ضد ذلك الزحف الاثيم .

ومنذ ذلك الحين وأمتنا تجود بالابطال العظماء والمجددين الذين لـم يخل عصر منهم . وان كانت امتنا قد اصابتها غفلة دينية لفترة قصيـرة فانها سرعان مانبهتوعزمت علىاللحاق بالركب واستعادة مكانتهاوجهادها الحالي اكبر دليل على اصالتها وعلى انها ستصل الى ماتريد .

ويرى الاستاذ ان الرجال التقدميين هم الذين يحققون التطور وانهنالك سدودا منيعة توقف تيار افكارهم واخطر هذه السدود في رأيه السلطـة والتقاليد والدين . ويبدأ حديثه عن السلطة فيحدد لها مهمة المحافظـــة على الوضع الراهن ؟ وهكذا يقع الاستاذ في التصميم الخاطىء .فالسلطة احيانا تقصد تبديل الوضع الراهن وتغييره ولا ادل على ذلك مـــن الحكومات الثورية ـ وقد شاهدت بلادنا بعضها ـ التي قضت على كثيـر من رواسب ومفاسد عهد الانحطاط السابق فحددت الملكيات وصفت البلاد وغير ذلك . ونحن مع الاستاذ في ضرورة مقاومة السلطة اذا كان همهـا كم الافواه وتحطيم الاقلام ولكنا نخالفه في ان هذا يتمثل تماما في شرقنا العربي كما يقرر هو . وليس معنى هذا تبرئة شرقنا فنحن نقرر انـه لازالت في شرقنا حكومات تسير في طريق الضغط والارهاب وتتصل بالاستعمار الغربي اتصالا وثيقا . ولكن الكثير مما وصف به الاستـــاذ السلطة الفاشمة انما ينطبق كليا على كثير من البلاد الاوروبية التـــي يبلغ اعجاب الاستاذ بها حدا عظيما . ونحن لم ننس بعد قصة الكاتـب باسترناك مؤلف الدكتور جيفاكو ، كما ان بلادنا لم تشهد سلوكا مكارثيا،

قريبا

مواطن امام القضاء

للقاص العربي

فاضـــل السباعي

نشر دار المعارف بمصر

كذلك الذي ساد اميركا . وسيل الكتب المنوعة المتدفق من المطابع ـ في بعض دولنا ـ في مختلف المواضيع المتضاربة ليدل دلالة قاطعة على ان حرية الفكر بخير اذا ماقورنت ببعض البلاد الغربية ..

ثم يتحدث الاستاذ عن التقاليد التي يراها « افكار عصر سابق ، تعبير عن الامس يريد ان يضع مخالبه في يومنا نحن » . ويرى ضرورة التحرر منها . ونحن معه في ضرورة التحرر من التقاليد البالية ونقول ان شرقنا اول من نعى على الناس اتباعهم المطلق وانقيادهم الاعمى للاباء والاجداد وكانت صرخة النبي العربي في قومه مزلزلة لكل التقاليد البالية . اما ان نخالف كل شيء قاله الاباء والاجداد من دين ومنطق وعبارات ـ كما يرغب الاستاذ ـ فهذا قضاء على روح امتنا وتجاف للمنطق السليم ، لان ماهو حق يبقى كذلك على مر الزمن ولا حاجة لتغييره ، مادام يوائم العقل السليم . ثم ان الماضي والتقاليد لامة من الامم تحوي في تضاعيفها عبقرية الامة . ولقد كان عمل هرود الالماني رائعا لما انكب على تقاليد الشعب الالماني وابرز منها عظمة الشعب فكان عاملا هاما في توحيد الامة الالمانية . ان رغبة الاستاذ بالتغيير تصل الى درجة انه يعجب من بقاء العبارات المتداولة التي نستعملها في حياتنا اليومية مدة طويلة.. ولا ادري ان كان يرى تغييرها كل مدة وبودي لو مثل لذلك .

ثم يتحدث الاستاذ عن الدين الذي هو في نظره اخطر السدود ،فيبدأ بوضع مبدأ جديد وهو « ان الحقيقة لا تعرف الا بمقدار ما يتفق عليها الجميع ويرضون عنها ، واذا حدث واعلن فرد شكه في منطقيتها تزلزل مركزها واصبحت عرضة للانسحاق » . ثم يقول « والحقيقة الدينية لايتفق عليها الجميع لانها ضد المنطق والرياضة وتؤكد على الوهم والخرافة»

اما المبدأ فجديد كل الجدة ولو اعتمدناه مقياسا لما وجدت حقيقة ابدا وحيث اننا نشك في منطقية كلام الاستاذ فيكون كلامه تبعا لذلك ليس حقيقة ـ حسب مقياسه ..

اما ان الدين ضد المنطق في الرياضة فالبحث في ذلك يطول ولقد بحث هذا الموضوع من قبل كبار العلماء الشرقيين والغربيين واظن انه من المجافاة للبحث العلمي ان نقذف بالكلام دونما تدليل . ولقد تميز القرن التاسع عشر في اوروبا بظهور النزعة الالحادية وعبادة العقل اما القرن العشرون فيلاحظ ان جل علمائه قد عادوا الى الايمان بعد انظهرت محدودية العقل .

اما انالدين«صورة منصور التقاليد تؤكدعلى الانصياعوالعبوديةوالرضى بالواقع » فان الواقع التاريخي يكذب ذلك حيث يدلل على ان اعظم الانبعاثات التي حدثت في امتنا انما كانت بفضل الدين . وواقعنا الحالي في حربنا ضد الاستعمار يدلل ماللدين من اثر عظيم في رفض الذل والعبودية . ان امتنا تتميز بانها كانت موطن الاديان ورسالتها للعالم اسمى الرسالات .

اما « ايثار المجتمع العربي السلامة بالانكباب على دراسة الكتب الصفراء واستخراج الخرافة والتعقيد التشريعي والبربرية من بين سطورها ثم اتخاذها اخلاقا » . ان الواقع عكس ذلك وما اصعب ان يتهم انسان بعكس واقعه . احق ان اخلاقنا بربرية . ونحن الذين سادنا احسنالنظم الاخلاقية فكنا في كل تصرفاتنا مثلا جيدا للانسان الحق . عرفنا الفتوحات فكنا ارحم الفاتحين . ان هذه التهمة هي قول العلماء العبيد لاساطين الاستعمار الغربيين الذين انحطوا بالمستوى الانساني في اعمالهم ومع ذلك يلحقون التهمة بنا . اما التشريع الذي ابدعته امتنا فهو ارقى التشريعات باعتراف اكبر المجامع التشريعية الدولية الحديثة ، وكتبنا الصفراء هي التي حملت الحضارة للغرب والى قرن مضى كانت لايزال بعضها يدرس في جامعات اوربا .

وبعد . فان حرية الفكر تنادي بان يعتقد كل انسان مايشاء . وامتنا مؤمنة بالاديان ومتميزة بالحضارة الحقة التي وازنت بين الجانبين المادي والروحي وهي لذلك تلفظ المادية وتأبى الشيوعية . وهي في ذلك كله لها مطلق الحرية في الإعتقاد . فلماذا اذن يغضب الاستاذ ويصرخ واصما اياها بأبشع النعوت من بربرية وتخدير وجهل وتعصب . ان حرية الفكر لاتعني ان نفرض الالحاد على امتنا بل ان ندعها تؤمن بما تشاء . ولئن كانت تلك السدود تمنع تقدم الافكار في الغرب فان الوضع بالنسبة لنا جد مختلف فقد حدثت موجة الالحاد في اوربا نتيجة للصورة التي اعطتها الكنيسة الاوربية للعقيدة المسيحية ابان تأخرها حيث وقفت في وجه التقدم العلمي وحرقت العلماء وعذبتهم . ونحن لانعرف مثل ذلك في شرقنا . أما ان يعرض الاستاذ صورة ذلك الجلف القروي ذي العمامة الخضراء والمسبحة الطويلة واللحية الوسخة والشاربين القذرين ويصوره بانه يصبح الحاكم والاله فهي صورة محرفة عن واقع ماحدث في اوربا وهي بذلك مستوردة ولا اظن ان احدا يذكر حدوث مثل هذا في شرقنا لانحكم عامة الناس على امثال ذلك الجلف ... انه جلف جاهل .

وبعد .. انها ازمة يقع فيها شبابنا من تلك الفئة التي لا تعرف الا الاستيراد من الغرب . وعسى ان يأتي الجهد القوي من شبابنا الواعي لتصحيح المفاهيم وعرض تاريخنا صحيحا ينقذ اولئك من ازمتهم .

دمشق ـ الاقليم الشمالي — **احمد صدقي الدجاني**